السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريتر اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل الثامن

في ضحية البار

واشتدَّت وطأة المرض على فاضل فنحل وضني حتى صار من المنيَّة على قاب قوسين. وكان فراشهُ في ذاك الكوخ عبارة عن بعض الهشيم وغاية ما كان يعالجهُ به رفاقهُ الماء البارد مع بعض اعشاب يجمعونها من الشاطئ

اما اولريك فكان لا يفارقهُ اصلًا وكثيرًا ما كان يضع على جبينهِ خرقًا مبلولةً بالماء تسكينًا لحرارة الحمَّى المحرقة او يأتي بصورة العذراء القديسة ويحملهُ على تقبيلها وطلب شفاعتها القديرة والاتكال على مراحمها العزيزة. ثمَّ انَّ فاضلًا لمَّا شعر بدنوّ الموت هاجت في نفسهِ البلابل واشتدَّ الاضطراب وصارت الحياة عليهِ كثقل يضغطهُ ويتمنى لو امكنهُ ان يخلص منهُ. وكان يتأسَّف لعدم وجود كاهن يستطيع ان يكشف لهُ ضميرهُ ويسرد عليهِ مساوئهُ وذنوبهُ في منبر التوبة ولذلك كان يخاف من ان يظهر امام الديان الرهيب مسودّ الصحيفة. نعم ان اولريك كان يحرّضهُ على الندامة الكاملة ويُفهمهُ انها كافية في مثل هذه الحال ولكن الندامة الكاملة هي عبارة عن محبة الله تعالى من حيث هو لا غير وكيف يمكنهُ ان يندم مثل هذه الندامة وهو الذي فقد محبَّة الله من زمان طويل. وقد تمثل لذهنهِ في تلك الساعة جميع الذين ألحق بهم الاضرار بمساعيهِ واعمالهِ الجائرة. ورأى ان احتكارهُ الحبوب في شيكاغو وتلك الطرق التي استخدمها لاعلاء الاسعار وغير ذلك من الاعمال ما كانت سوى سرقة ولصوصية وان الله سيدينهُ عليها دينونة هائلة تنكشف بها الخبآت وتظهر المكنونات ويقوم اولئك الفقراء والمساكين الذين اضرَّهم قائلين: «ردَّ لنا ما سلبتناهُ ألا تعلم ان هذا الذهب حشدتهُ وافتخرتَ بهِ هو ثمن أعراقنا واتعابنا»

ثم اشتدَّ عليهِ البحران وكان يريه جماهير الجياع دائرة حول مرقدهِ وهم شاحبو الابدان صفر الوجوه غائرو العيون فيجيبهم بصوت مذعر قائلًا: «سأردّ لكم كل شيء.»

ثم مثَّلت لهُ الهواجس أمورًا اخرى من ماضيهِ فجعل يصرخ قائلًا: اري يديَّ

ملطّختين بالدم فمن اراق عليهما دماً ؟.. تعساً لك يا نسيب وسحقاً... أفأترك بروسبر اولري... ويلٌ لي كيف خنتُ منقذي.. تعالي ايتها الراهبة جانّ ماري تعالَ يا اولريك الى معونتي... وهذا الخنجر لماذا يلمع في هذه الزاوية. ألا اعطوني هذا الخنجر... تبًّا لك يا نسيب... اني أرى هنا جثةً. فمن الذي اذاقها... اني أطأ تحت قدمي الاموات... آه ما اشرّني كيف قتلت شبيهي.. اتتزلني ايها القبطان في باخرتك.. ولكن لا توجد بواخر للسفر.. آه يا اولريك اين انت

وكان فاضل اثناء تلفُّظهِ بهذه الجمل المتقطّعة المذكّرة بما جرى لهُ من الحوادث التي عرفها القراء يتلوّى ويتشنّج وينتف شعرهُ بينما ان اولريك كان قائماً بجانبهِ مرتعدًا وقد ظهرت عليهِ علائم الشفقة والتألم. فلمّا سمع قولهُ: « اين انت يا اولريك » اجابهُ حالًا: « اني هنا قائم امامك فمُرْ بما تشاء وتريد »

فكانت عين فاضل تقرّ لمنظر هذا الملك الارضي فتسكن حركاتهُ ويهدأ اضطرابهُ الّا انّ نوبات المرض اخذت تتوالى على المريض فخيّمت عليهِ حمّى خبيثة وتخوّنت جسمهُ حتى ايس اصحابهُ من شفائهِ وكانوا يتوقّعون من ساعة الى أخرى انقضاء اجلهِ. وبلغ بهم القنوط من نجاتهِ ان اخذ الرّبان اندرسون وهاريس في اعداد تابوتهِ

امّا أولريك فما كان يغادر فراش المنازع وبينما كان يسمع صوت مطارق رفيقيهِ يدقّان ألواح التابوت كان هو يستحرّ بالصلاة لاجل خلاص المريض ثمّ اسند رأسهُ الى يديهِ ساعةً وقام بغتةً ووجههُ يتهلّل فرحًا فقال: « اشكرك يا ربّاهُ على انك رضيتَ بتقدمة حياتي فداء عن هذا المسكين »

وبعد برهةٍ من الزمان عاد اندرسون وهاريس فاخذ منهما العجب مأخذهُ اذ وجدا فاضلًا قد اكتحلت بالنوم جفونهُ. فاشار اليهما أولريك ألّا يوقظاهُ بجلبتهما. فاقتربا منهُ ووجدا نفسهُ منتظمًا ومسّا جبينهُ فاذا بالعرق يندُّ منهُ مع سكون حرارة الحمّى وانتظام حركة النّبض. فجثوا بقرب اولريك وقدّما لعزتهِ تعالى صلاة الشكر على نجاة صديقهما بيد انهما لم يعرفا انّ شفاء فاضل كان بنذر بوفاة الفتى أولريك

ولمّا افاق فاضل من نومهِ شعر بان حياةً جديدة دبّت في اعضائهِ وكان نظرهُ متّجهًا الى أولريك كانّ لسان حالهِ يقول لهُ: « لولاك لانصرم حبل حياتي ». لكنّهُ لم يعلم ما قدّمهُ ذاك الشاب الاريحي من الضحية لله فداء عنهُ

ثمّ طلب فاضل شيئاً من المأكل ليسدّ بهِ جوعهُ وكان مذ خمسة ايام لم يذُق طعاماً. فلمّا تناولهُ مدّ يدهُ الى يد أُولريك فضغطها بيانًا لشكرهِ وقال: « جازاك الله عني يا صديقًا صدوقًا كلّ خير ». اما اندرسون وهاريس فانهما تأثّرا من هذا المشهد واثنيا على شهامة أُولريك وكرم طباعهِ واستدلّا بنوعٍ حسّي على صحّة ديانتهِ التي ارشدتهُ الى مثل هذه الاعمال الخيريّة التي تفوق القوى البشريّة

ومذ ذاك الحين ثاب جسم فاضل فأبلّ من مرضهِ. غير انّ صحّتهُ لم تزل تقتضي عناية خاصّة وكان أُولريك قائمًا في خدمتهِ كأنهُ احدى راهبات المحبّة يخدمهُ في كل حاجاتهِ بلا فتور ولا ملل

هذا وكان هاريس واندرسون في تلك الاثناء يلحظان من ملامح أُولريك انحطاطاً في قواهُ وتوعّكاً في مزاجهِ واصفرارًا في لونهِ فسألاهُ عن الامر فاجابهما متبسّماً: « لا تهتمّا حالي فاني عالم بداني وعمّا قليل ان شاء الله سوف احظى براحةٍ افتقدتها ليس فوقها راحة »

فلم يفهم اصحاب اولريك ماذا اراد بقولهِ هذا وأرادوا ان يستزيدوهُ ايضاحاً

وكان بعد جمعتين انّ فاضلاً نقه تماماً من مرضهِ العضال وبرح فراشهُ فاجتمع رفقاؤهُ واقاموا في ذلك اليوم عيدًا قضوهُ بالانس والفرح وكانوا يتذكّرون كلّ نعمهِ تعالى اليهم مذ انكسرت بهم السفينة الى تلك الساعة وكيف العناية الصمدانية جمعت شتاتهم. وكان اولريك يوجّه بالحاظهم الى ربّ الكون وابي المراحم ليثير في قلوبهم عواطف الشكر للمنّان

ولمّا كان مساء ذلك النهار اذ جنحت الشمس الى الغروب اجتمع الاصدقاء ثانيةً وخاضوا في بحر الحديث. وكان أُولريك ساكتاً وعلى وجههِ المتقع أمارات الضنك كانّ قواهُ اوشكت ان تخور ورباطات جسمهِ ان تنحلّ. وكان يعير اصحابهُ سمعاً وثغرهُ باسم يفرح لفرحهم وينسى ما هو عليهِ من الضعف

فلمّا رآهُ اندرسون ساكتاً احبّ ان يسمعهُ فيشنّف آذانهُ وآذان هاريس بكلامهِ العذب. فسألهُ ان يبيّن لهما صحّة دينهِ ويزيل ما تشرّبهُ روحهما منذ نعومة الاظفار من البغض للدين الكاثوليكيّ

فما سمع أُولريك هذا الكلام حتى استنار وجههُ واحمرّت وجنتاهُ وانتدت عيناهُ

ثمَّ اندفع في الكلام كأنهُ سيلٌ زحاف يقوّض في سيرهِ سدًّا او حاجزًا حال دون انحدارهِ الى البطاح فقال :

« ما لكم تسألوني عن ديانتي أوَ ترونني فعلتُ ما فعلتُ الى هذا اليوم لو لم تتوّني مبادئ ديني القويم . فبها اعتصمتُ وإياها اتّبعت فكانت لي نورًا في الظلام وسندًا في ساعات الفشل ولي الرجاء الوثيق انها تكون بعد ايام قلائل تعزيتي وملاذي عند ملاقاة ربّي . . . ناشدتكما الله يا ربّاني اندرسون وانت يا رئيسي هاريس ان تبحثا بحثًا نعمًا في صحة هذه الديانة . . . اني لستُ عالمًا ولا فيلسوفًا ولكن يكفيني شهادةً لمعرفتي صدق ايماني انَّ نيفًا وعشرة آلاف الف من البشر سفكوا دماءهم للمدافعة عنهُ . . وحسبي شاهدًا اني رأيتُ حيثما سرت أُلوفًا من المرسلين والراهبات يضحون النفس والنفيس في سبيل هذه الديانة ولا يطلبون بدلًا من اتعابهم ألّا ان يموتوا في خدمة القريب بعيدًا عن الاوطان دون تعزية بشريَّة ولا نفع شخصي . . . فاين اين منهم دُعاة الاصلاح الموهوم ونصراء كلوين ولوتار الذين يتاجرون بالدين ويتخذونهُ كوسيلة لمآربهم الذاتية . . . ولو سبرتَ غورهم لوجدتهم بالأُجراء اشبه منهم بالرعاة . . . »

قال أُولريك ذلك ثم جعل يردّد على مسامع رفقائهِ ملخّص العقائد الدينية التي تعلّمها في حجر والدتهِ ويدافع عن صحّتها على قدر الامكان بحجج قريبة المنال كما هو شأن السذّج البسطاء .

وكان اصحابهُ في خلال كلامهِ يتعجّبون من براعتهِ وينذهلون من وضوح براهينهِ ويتخيّلون انَّ قوة سماويَّة تنطق على لسانهِ ومن ثمَّ كانت نفوسهم تتلقّى بذور الخلاص من فم هذا الملّاح الصغير الذي ما كانوا يكادون يحفلون بهِ قبل اسابيع لمَّا كان يهتمّ باشغال السفينة ويصرف قواهُ في الخدم الشاقّة . وكانت ساعات تلك الليلة تمرّ عليهم ولا يشعرون بها لما يجدونهُ من اللذّة في كلام هذا المعلّم الجديد . اما فاضل فكان في تلك الاثناء يتأسّف على سوء اعمالهِ ويلوم نفسهُ على طمعهِ المفرط في تحصيل المال وهو الذي ادّى بهِ الى فقد الشعائر الدينية التي كانت تعزّي أُولريك

ولمَّا قرب منتصف الليل سكت أُولريك وقال كأنهُ خجل من صَرْفهِ اصحابهُ عن النوم : « اصفحوا عني لكوني شغلتكم كلَّ هذا الزمن بكلامي البسيط غير اني كنت

ارى حالي كأني مدفوعاً الى القول بقوّة عجيبة. قال هـذا وقرأ على رفقائهِ سلام الليل وأوى كلٌّ الى فراشهِ

فما مرّت بضع دقائق حتى نام الكل الّا أولريك فانّ خطابهُ الى رفقائهِ كان زاد في تعبهِ فأحسّ بتشعريرة الحمّى والتهاب الشُعَب فقضى ليلهُ وهو يتململ على فراشهِ

وفي ضحوة اليوم التالي لمّا قام اصدقاؤهُ من نومهم اتوهُ ليسلّموا عليهِ ويشكروا لهُ تعاليمهُ في الليلة السابقة فوجدوهُ في اسوإ حال. فاخذوا يلحّون عليهِ بان يخبرهم ما اصابهُ من الاوجاع لعلّهم يجدون دواء لدائهِ

امّا أولريك فكان يشكر لهم ودادهم ويسكن روعهم ويقول:

« لا يهمّكم امري فاني لا اشعر بألم وانّما يناجيني قلبي انني ساتركُكم عمّا قليل»

اجاب رفقاؤهُ باسف: ما هذا القول يا صاح والى اين رحيلك ؟

— اني راحل الى حيث لا يمكنكم ان تتبعوني. وما رحلتي الّا الى دار البقاء

— دع عنك ايها العزيز هذه الافكار المقلقة. انك في ريعان الشباب. ولنا امل وثيق بانّ مرضك عرضٌ زائل

قالوا هذا واخذوا جميعاً يطلبون لهُ وسائل الراحة فهذا يوطئ مرقدهُ وذاك يأتيهِ بماء يبرّد غليلهُ وهم لا يرون ان الله يرضى بأن يفصلهم عن هذا الملاك الذي آنسهم في وحدتهم وذكّرهم بنفوسهم وآخرتهم .ورفع بالحاظهم الى خالقهم بعد ان كانوا نسوهُ منذ امدٍ مديد

لكنّ مساعيهم لم تُفد كثيرًا اولريك بل كان يزيد شحوبًا وضنًى وهو مع ذلك يتلقّى الاسقام والاوجاع بوجهٍ بشوش كأنّهُ ينتظر لقاء ربّهِ والدخول الى فرح سيّدهِ

فمضى عليهم ذلك الصباح يتنازعهم عاملا الرجاء واليأس. لكنّ المريض لم يزل يكرّر على مسامعهم عبارات التعزية وهو يؤكد لهم ان ساعتهُ قد دنت

ولمّا كانت الساعة الثانية بعد الظهر اطبقت الحمّى على أولريك شعر بانّ انفاسهُ معدودة لم يبقَ لهُ الّا بضع دقائق. فدعا رفقاءهُ الى قرب فراشهِ بصوت ضعيف ثمّ قال:

« الوداع الوداع ايها الاخلّاء. ها اني اسمع صوت الله يدعوني اليهِ فاقرئكم السلام الاخير. لا تأسفوا عليّ فاني انا لا انساكم ان شاء الله فاصلّي من اجلكم عند الرب اذا ما تعطّف عليّ ومنحني خلاص نفسي كما اني ارجو ذلك من رحمتهِ تعالى وشفاعة العذراء

الطاهرة. ثم اني كنتُ اودّ ان اهبكم تذكاراً فلا ارى سوى هذه الصورة التي ورثتها من والدتي وهي لديَّ اثمن من جميع كنوز الارض فاني ادعهـا بين ايديكم واطلب اليكم ان تكرّموها بعد وفاتي فهي تكون لكم عوناً وملجأً حصيناً في ضيقكم »

قال هذا وجعل يقبّل الصورة بكل حبّ وخشوع. امّا اصحابهُ فلم يتمالكوا نفوسهم وصارت دموعهم تنهمل كأنهـا المطر المدرار. ثم انكبُّوا عليهِ واخذوا يلثمون يديه ويتوسلون اليهِ الّا يفارقهم. وكان هاريس يعول صارخاً: السـاحَ السـاح عن سوء تصرُّفي نحوك ايها الحبيب فكنت درًّا مكنوناً لم اعرف قيمتهُ الّا في هذه الايام القصيرة وها اني افقدهُ من يديَّ ثانيةً »

فتأثر أولريك من هذه المظاهر وشكر لرفقتهِ معروفهم. ثمّ اطبق عينيهِ صامتاً. وكان اصحابهُ يظنون انّهُ لفظ روحهُ لكنّهم وجدوا لقلبهِ حركةً خفيفة. ومن وقت الى آخر كانوا ينظرون شفتيهِ تتحركان كأنهُ يناجي ربّهُ

فمرّ على المريض بضع دقائق ثمّ فتح عينيهِ ثانية وانتصب على فراشهِ بغتةً وشخص ببصرهِ الى صورة والدة الاله صارخاً:

« اليَّ اليَّ ايتها البتول الطاهرة. . . ما ابهى جلالك. . . وما اسنى فضلك. . اقبلي في حضنك عبدك الصغير »

قال هذا وسقط على فراشهِ وفاضت نفسهُ البارّة

امّا اندرسون وهاريس وفاضل فكانوا في خلال ذلك غائصين في بحر الألم والحزن وهم مع ذلك لا يبدون حراكاً. فلمّا رأوا ملاكهم قد طار الى دار الخلد اصابهم حزن لا يوصف. فبقوا ساعةً يذرفون العبرات السخينة ولم يجـدوا سلواناً الّا في كلام وداعهِ الاخير لهم والنظر الى الصورة التي اورثهم اياها

ثمّ قام اندرسون بكل احترام واطبق عيني الميت واخذ يجهّزهُ ليُقبر. وفيما هو يفعل اذ وجد على صدر أولريك ورقة ففتحها فقرأ هذه الكلمات:

« اللّهم انى اقدّم لك حياتي ضحيّة عن رفقتي الثلاثة في هـذه الجزيرة فادعني اليك ونجّهم نفساً وجسماً »

(ستأتي البقية)